الفصل الأول

مانديلا (مرحلة الطفولة والشباب)

- نسبه وموطنه .
- مرحلة شبابه .
- بداية النشاط السياسي .
- عصبة شباب جنوب أفريقيا .
- المقاومة الشعبية طريق الحرية .

نيلسون مانديلا

NELSON. R. MANDELA

- **النسب والموطن :**

هذا الرجل السجين لأكثر من ربع قرن يمثل روح النضال والتحـــرر في جنوب القارة الأفريقية ، وهو نموذج للمجتمع الجديد ، ولا يمكننا ذكره إلا بكل احترام وتقدير ، ويقول صديق له في الحزب المحظور المؤتمر الـــوطني الأفريقي (ANC) وهو ايدي دانيالز (EDDIE DANIELS) : أنه رجل عاقل وليس بإرهابي ، ويمكنه التحدث مع الحكام والملـــوك ، ومـــع العامـــة والفقراء على حد سواء ، فهو داعية سلام حقاً ، لقد تم دفعه غصباً عنه للعنف الذي يكرهه ، وعلّق أيضاً بقوله : لاشك أن مقتل إنسان أفضل بكثيـــر مـــن إيداعه السجن المؤبد .

لقد أحيت الجماهير ذكرى ميلاده ، وسُميت الشوارع باسمه كما حدث في العاصمة البوتسوانية جابرون وفي لندن ، ومُنح الدكتوراة الفخرية من عدة مؤسسات علمية وجامعات في الدنمارك ولوســـوتو وبريطانيـــا ونيويـــورك وغيرها ، كما منحته فنزويلا جائزة المناضل المشهور في أمريكـــا اللاتينيـــة (سيمون بوليفار (SIMON BOLIVAR) وكان اسمه على كـــل لـــسان ، وتحدثت عنه وسائل الإعلام في كل مكان ، وأُلفت عنه الكتب والأشـــرطة ، كما استحق وعن جدارة جوائز دولية عديدة لحقوق الإنسان من دول وهيئـــات ومؤسسات سياسية وعلمية في جميع أنحاء العالم .

فمن هو نيلسون مانديلا هذا ؟

اسمه بالكامل هو نيلسون روليهلا هـلا جـادلا هنقـسكايو مانـديلا (NELSON ROLH-HLAHLA JADLA MANDELA)، ولد فـي 18 / 7 / 1918 م في قرية كونو (QUNU) قرب (UMTATA) أوم تاتا وهي أكبر قرية في منطقة الترانسكاي (TRANSKE) إحدى مقاطعات جنوب أفريقيا ، وقد قضي طفولته في جبال ووديان تلك المنطقة ، وبالـذات على ضفاف وادي أمباشي (MBASHI) وهي منطقـة زراعيـة مقابلـة للمحيط الهندي ، ويشتغل أهلها بأعمال الزراعة والرعي .

وهو ينتمي إلى عائلة مالكـة آنـذاك تنتمـي إلـى قبيلـة التيمبـو (THEMBU) ، وكان والده المستشار الرئيسي لابن عمه الرئيس الأعظـم للتيمبو ، كما شارك والده الذي كـان يـسمى (هنـري جـادلا مانـديلا) (HENRY GADLA MANDELA) في الحرب العالمية الأولـى ضـد الألمان ضمن جيش جنوب أفريقيا في مناطق جنوب غرب أفريقيـا ، فـضلاً عن توليه وظائف استشارية حكومية داخلية في بلاده .

لقد كان مانديلا ابناً للزوجة الثالثة ، وهو الرابع في الأبناء الذكور من عدد ثلاثة عشر أخ وأخت[1] .

وكان والد مانديلا متزوج من (4) زوجات ، وتعرف أم مانديلا ذات الشخصية القوية باسم (نونغوفي) أو نوسيكيني (NOSEKENI) ويعنـي اسم رولي هلا (الشخص المثير للمتاعب) .

---

(1) تقرير عن شريط وثائقي ، الإذاعة الليبية الفضائية ، بتاريخ 17 / 12 / 2008م.

وقد كانت هذه الأسرة تعيش في سلام ووئام في مجتمع من الأفارقة يحكمون فيه أنفسهم بأنفسهم ، ويزرعون أرضهم ، ويدافعون عنها ، ويرعون حيواناتهم ، حتى جاء الرجل الأبيض الغازي والمستعمر سياسياً واقتصادياً وثقافياً لبلدهم ، ولذا فقد تعلّم مانديلا في المدرسة أن المجد والفخر هو للرجل الأبيض ، بينما الأسود هو مجرد سارق وهمجي ، وكانوا يستدلون على ذلك بحروب تسمى الأماكسهوس أو حرب الـ (KAFFIR) الكافر .

وقد كان مانديلا يرتدي ملابس والده القديمة والكبيرة عليه ، ولذا فهي تبدو مضحكة ، وكانت دائماً في ذهنه المذبحة التي أقامها رئيس الوزراء الجنرال (سماتس) (SMUTS) سنة1921 م ، في منطقة بلُهوك (BULHOEK) والتي راح ضحيتها 163 شخصاً بالإضافة إلى مقتل (100) شخص آخرين نتيجة قصف الطائرات لبوندي لسوارتس ، وذلك نظراً لعجز أهلها عن دفع الضريبة والتي تسمى (DOG TAX) ضريبة الكلب .

وحينما مرض والده هنري أوصى بمانديلا ذي الاثنى عشر عاماً إلى زعيم القبيلة ، وطلب منه تعليمه وتدريبه كأحد أبنائه ، عسى أن يخدم الأمة الأفريقية الجنوبية ، وهكذا توفى والده وهو لا يزال صغيراً ، فانتخب من أفراد القبيلة مكان والده .

وقد أرسله والده في البداية إلى المدرسة التبشيرية المحلية ليتعلم ، حيث تنقل في دراسته وإقامته بين المدرسة وبيت أمه وبيوت زوجات أبيه كما ذكر مانديلا فيما بعد[1].

---

(1) مقالة بشبكة المعلومات بعنوان : والنضال وجه آخر (نيلسون مانديلا) نموذجاً Htt:Jamahir – alwehda.Gousy. file Name2310 . p, 1,2 .

وكان الوصي على عرش التيمبو بعد وفاة والده يوصيه دائماً بقوله : " إن القائد يجب أن يكون كالراعي ، يقود قطيعه من الخلف بالإقناع الماهر "[1].

وقد اشتهر مانديلا باللقب (ماديبا) وهو الاسم العشائري له ، بينما أطلق عليه أستاذه المبشر بالمدرسة اسم نيلسون . وقد بدأ إعداده لتولي المنصب الذي كان يشغله والده ، وقد تلقى مانديلا دروسه الابتدائية في مدرسة داخلية بجنوب أفريقيا خلال عام 1930 ، وكان مانديلا وهو في سن السابعة أول فرد من عائلته يذهب إلى المدرسة ، وفي سن السادسة عشر توجه إلى (معهد كلارك كبيري) ليتعلم ثقافة الغرب ولغته ، وقد أنهى المرحلة الأولى من الدراسة في سنتين بدلاً من الثلاث سنوات الاعتيادية للدراسة آنذاك .

وقد عاش مانديلا فترة دراسية مضطربة ، حيث واجه الطرد من الجامعة التي التحق بها على أثر احتجاجات طلابية على سياسة الجامعة ، وتنقل بعدها بين العديد من الجامعات ، مثل كلية (ويسليان) ، ثم تابع دراسته بالمراسلة من مدينة جوهانسبيرج في جامعة جنوب أفريقيا ، وحصل على أجازة علمية ، ثم التحق بجامعة (وايتوا ترزراند) الخاصة السود لدراسة الحقوق ، وتحصل على شهادة الليسانس في القانون .

وقد عاش مانديلا في قصر رئيس القبيلة الضخم والذي يسمى (MQEKEZWENI) أمكيكزويني ، وتربى وتعلّم تقاليد القبيلة وطقوسها الأولية ، ودرس في كلية للتدريب ، كما اطلع على النظام القضائي في القبيلة وطريقة الحكم ، ونظراً لإعجابه بذلك النظام فكّر في أن يكون محامياً في المستقبل .

---

(1) شريط وثائقي ، الإذاعة الليبية ، مرجع سابق .

ومن الجدير بالذكر أن التعليم آنذاك كان يعتمد على نشاطات البعثات التبشيرية ، ولذا نجد أن جده قد تبرع بقطعة أرض لإحدى الكنائس كعرفان منه بجهودها في مجال التعليم .

كما يلاحظ أن هناك نوعاً من الممارسة الديمقراطية في مناطق ترانسكاي وكسكاي ، ولذا نرى إجراء عمليات الانتخابات والتصويت آنذاك ، غير أن الأمر تبدل بعد خروج الإنجليز ونهاية حرب (البوير) سنة 1899م. ففي سنة 1936 م صوّت البرلمان في مدينة الكاب (CAP TOWN) بأغلبية (169) صوتاً لإلغاء أي سلطة للسود في جنوب أفريقيا . كما صدر قانون المرور أو التجول (PASS LAW) وبمقتضاه يتوجب على كل أفريقي أسود أن يحمل بطاقة مرور شخصية تحدد حركته اليومية ، ويتعرض لأقسى أنواع العقوبة إذا لم يلتزم بحملها ، كما أن الأرض نُهبت وسُلبت من أصحابها الحقيقيين وفقاً لقانون صدر سنة 1923 م ، حيث أصبحت الأرض في جنوب أفريقيا توزع على النحو التالي :

87 % من الأرض مخصصة لعدد 2 مليون أبيض .

13 % من الأرض مخصصة لعدد 8 مليون أسود آنذاك .

وسط هذا الهيجان ، درس مانديلا التاريخ ، ثم التحق بكلية فورت هير (FORT HARE) التي أنشئت سنة 1916 م في مقاطعة الكاب الشرقية ، وتحصّل على (ليسانس) في الآداب عام 1940م ، ودرس معه صديقه ورفيق كفاحه في المستقبل (أوليفر تامبو) (OLIVER TAMBO) زعيم حركة الـ (ANC) المؤتمر الوطني الإفريقي ــ فيما بعد ــ بعد حصوله على منحة دراسية بهذه الكلية .

وفي هذه الكلية أصبح عضواً في اتحاد الطلبة بها ، وقد أوقف عن الدراسة وطرد من المدرسة نظراً لنشاطاته الثورية وتحريضه على الاضرابات والاعتصامات ورفض النظم والقوانين العنصرية التي تطبق في بلاده ، و من الغريب أن اسم رولي هلاهلا يعني الشخص المثير للمتاعب في اللغة الإفريقية المحلية ، وقد عنّ له الزواج وهو في الثانية والعشرين من عمره ، غير أنه سرعان ما عدل عن الفكرة وقرر التفكير في الزعامة وقيادة المضطهدين ، ولذا غادر تلك المنطقة إلى مدينة جوهانسبرغ (JOHANNESBURG) الشهيرة .

- **حياة مانديلا في الفترة من 1941 ـ 1951 م (مرحلة الشباب) :**

لقد انبعثت ثقافة مانديلا السياسية في وسط ظروف السود القاهرة ، فهم يعيشون في أكواخ وأحياء فقيرة وقذرة في الترانسفال تحت ضغط الميز العنصري والاضطهاد والمعاناة اليومية رغم خيرات بلادهم الكثيرة المتمثلة في مناجم الذهب والنحاس والمعادن ، والأرض الزراعية الخصبة ومصادر المياه الغزيرة والمواد الخام المختلفة ، وقد كان أول عهد له بالعمل أن اشتغل كحارس أو بواب على مبنى للبيض مقابل دراهم معدودة ، وقد وصف فيما بعد كيف كان يحمل العصا والصنّافرة ولكن لكرهه للأساليب العنصرية التي ينتهجها البيض في بلده ترك العمل بعد أيام وهام على وجهه . . ولكن إلى أين ؟

لقد صادف أن التقى بصديق له هو السيد (WALTER SISULU) والترسيسولو ، الذي كان يمتلك مكتباً للخدمات العقارية ، وقد عرض عليه فرصة عمل معه بمرتب (2) جنيه استرليني في الشهر ، بالإضافة إلى

توفير الإقامة له ، ومما قاله سيسولو عن تلك الفترة : " لقد استرعى انتباهي مانديلا الرجل الكفؤ الذي يعتبر دعماً للحركة الوطنية ، وكان لا يأبه بتحذير رب العمل لمانديلا بالابتعاد عن والتر سيسولو بقوله (إن لم تبتعد عنه ستقضي بقية حياتك في السجن) " . ومن الأحداث التي تحدّث عنها مانديلا فيما بعد قول السكرتيرة له عندما عمل في مكتب للبيض : " للأسف ليس لدينا مقهى منفصل للسود ، وعليك أخذ الشاي الخاص بك بنفسك وفي الكوب الجديد الخاص بك أيضاً.." .

وقد شجّعته تصرفات البيض العنصرية هذه إلى أن يقرر أن يكون محامياً وليس سياسياً ، ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن .

لقد تزوج مانديلا لأول مرة من ممرضة واسمها (EVELYN NTOKO) إيفلين نتوكو ، وكانت قد ساعدته في دفع بعض الرسوم الدراسية حيث كان يدرس القانون بالمراسلة في جامعة (WITWUTERESRAND) ويت وترزراند ، وقد بنيا بيتاً في منطقة تبعد حوالي (10) كم خارج جوهانسبرغ ، وهي منطقة سويتو حالياً ، وهي إحدى مواطن السود حتى اليوم .

- **النشاط السياسي :**

بدأ مانديلا في المعارضة السياسية لنظام الحكم العنصري في جنوب أفريقيا الذي كان بيد الأقلية البيضاء ، وكان يحرّم على الأفارقة أصحاب الأرض الأصليين ممارسة حقوقهم في الانتخاب أو المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد ، بل أكثر من ذلك كان يحق لحكومة الأقلية البيضاء أن تجردهم من ممتلكاتهم ، أو أن تنقلهم من مقاطعة إلى أخرى، مع

كل ما يعنيه ذلك لشعب (معظمه قبلي) من انتهاك للمقدسات وحرمان من حق العيش على أرض الآباء والأجداد ، وإلى جانب الأهل وأبناء النسب الواحد ، فالعنصريون البيض في جنوب أفريقيا يمارسون سياسة الميز العنصري وقوانين الأبارتايد على الأغلبية السوداء أصحاب الأرض الأصليين دون شفقة أو رحمة .

ففي عام 1942 م التحق مانديلا وبعض أصدقائه بالمؤتمر الوطني الإفريقي الذي يرمز له بالـ (ANC)[1] وكان قد تأسس في 8 / 1 /1912م كحركة مناهضة للميز العنصري في جنوب أفريقيا ، وتدعو للدفاع عن حقوق الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا ، ومن الجدير بالذكر أن تكوينه أي الـ (ANC) قد تم قبل عدة سنوات من إنشاء الحزب الخاص بالبيض الأفريكانرز (AFRIKANERS) والذي يسمى حالياً بالحزب الوطني (NP) .

وفي هذه الأثناء بدأت تيارات ثقافية من المثقفين الأفارقة تحاول تجميع أنفسها وتعمل على نبذ خلافاتها من أجل إلغاء الميز العنصري، وتطلّب ذلك عقد العديد من الاجتماعات وانتخاب المجالس ، وكان من بين رؤساء تلك المجالس السيد (JOHN DUBE) جون دوبي وآخرون ، قاموا بدور مهم في تأسيس المؤتمر الوطني الأفريقي الـ (ANC) .

ثم تمّ تصميم علم حركة الـ (ANC) في عام 1925 م من الألوان الثلاثة وهي :

---

(1) ANC : اختصار لـ African National Congress ، وتعني (المؤتمر الوطني الإفريقي) .

1 ــ الأسود ويرمز للسكان الأفارقة .

2 ــ الأخضر ويرمز للأرض الزراعية فيها .

3 ــ الذهبي ويرمز إلى المعادن التي تزخر بها جنوب أفريقيا .

في سنة 1930 م ، أصبحت الحركة منبراً للتعبير عن الآراء بعد أن كانت تقوم باحتجاجات سلمية عن طريق تقديم عرائض وتظلّمات ومطالب فقط، وكان من أبرز عناصر الحركة في هذه الفترة (BXUMA) أ.بكسوما وكذلك السيد (Z. K. MATHEW) ز . ك ماثيو .

وفي ضوء الاستثمارات الخارجية ورخص الأيدي العاملة المحلية وفقرها ، وازدياد أصحاب رؤوس الأموال غنىً ، استمر العمال في المطالبة بحقوقهم عن طريق اتحاد التجارة الأفريقي (SATU) [1] وتطوّر الأمر إلى حد أن استمرت بعض المظاهرات إلى 7 أسابيع من أجل تخفيض أجور الحافلات والأسعار .

وكانت مطالب الجماهير الأفريقية السوداء التي كان مانديلا من ضمن المحرضين لها في اجتماعات ولقاءات سياسية مستمرة من بيت لبيت ، كانت مطالبها هي إلغاء الميز العنصري وإلغاء قانون المرور البغيض ، وضرورة الاعتراف بحق المواطنة وحق التعليم والصحة للجميع ، هذا في حين أن العنصريين البيض يعتبرون أنفسهم جزءاً من العالم الأوروبي الاستعماري ، ولذا لم يكونوا ضد الفاشية ولا النازية ، بل زادوا عليها ممارسة العنصرية المقيتة .

---

(1) South African Trade Unoin .

لقد كان مانديلا يمارس بعض النشاطات الرياضية المناسبة للقضية التي يناضل من أجلها ومنها رياضة الملاكمة ، وقد عُرف عنه أنه كان يحب رياضة الملاكمة ، وقد زاولها لأنها في رأيه تمكنه من اكتساب مهارات يدافع بها عن نفسه ، وتساعد على تقوية الروابط والعلاقات والصداقات بين بني جلدته من السود ، وقال عن تلك الفترة : لقد ظننت أن أصبح مثل جوليوس الملاكم الشهير ، ولكن لم أكن حتى ملاكماً محترفاً متواضعاً ، وقد قرر مانديلا مع بعض الشباب تشكيل جامعة أو عصبة الشباب على أن تكون جناحاً لحركة الـ (ANC) ويعتبر هذا تغييراً تقدمياً خطيراً في الحركة ، وذلك لأنها بدأت تركز على حركة الجماهير الشعبية والعمل من أجل تحقيق الديمقراطية والعدالة ، وتمكين الأمة الأفريقية السوداء من المساهمة في تقدم الإنسانية ورقيها وبناء حضارتها وتحقيق سعادتها .

وفي سنة 1944 م انتخب السيد لمبيدي (LEMBEDE) رئيساً لعصبة الشباب في جنوب أفريقيا والسيد أوليفر تامبو سكرتيراً له .

وفي هذه الأثناء التقت عدة منظمات أخرى في جنوب أفريقيا وهي الحزب الشيوعي الذي تأسس سنة 1921 م ، والمجلس الهندي وقد تأسس سنة 1894 م برئاسة المهاتما غاندي ، ونسقت مع بعضها ، واتحدت في جبهة واحدة وذلك بجهود (DR. XUMA) د . إكسوما وكان الشعار السائد آنذاك " دعنا ننجز العمل " (LET US FINISH THE JOB) .

في سنة 1946 م ، التحق بالعمل النضالي مع نيلسون مانديلا اثنان من أصل هندي وهم إسماعيل مير(ISMAIL MEER) و ج. سنج (J. N. SINGH) ، وذلك باعتبارهما متضررين من قوانين سمتس

(SMUTS) العنصرية ، وكانت لمانديلا علاقات جيدة مع إسماعيل ميـر المسلم الهندي وأسرته ، الأمر الذي يعكس اهتمامه بمعرفة هذه الجالية وتاريخها وظروفها وتقاليدها وديانتها .

ومن المعلوم أن الإنجليز كانوا قد أحضروا الهنود من آسيا كعمال للعمل في مزارع السكر بجنوب أفريقيا ، وبالذات في مقاطعة ناتال 1860 م ، ومن بينهم كانت أسرة المحامي المشهور في ديربان وداعية اللاّ عنف بالقوة الروحية المهاتما غاندي .

وكان من رفاقه أيضاً السيد يوسف دادو (YUSEF DADOO) وهو من أصل هندي أيضاً ، وأحد زعماء الحزب الشيوعي ، ويذكر أن نيلسون مانديلا كان معارضاً أيديولوجياً للفكر الشيوعي رغم كونه غير معادٍ للشيوعية سياسياً وذلك لسببين :

1 ــ خلفيته الثقافية التقليدية الأفريقية .

2 ــ ثقافته الدينية التي تقوم على فكرة أن الشيوعية ضد المسيح .

وهكذا كان هناك عدم رضى على بعض أعضاء حركة الـ ANC) (الذين ينضمون تحت لواء الحزب الشيوعي ، وأجريت محاولات لإبعادهم عن الحركة رغم أهمية بعضهم كعناصر فعّالة .

ورغم ارتباط مانديلا الوثيق بجامعة أو عصبة الشباب ، إلا أنه كان يختلف معها في بعض أفكارها ، ومنها على سبيل المثال قضية رمي البيض في البحر ، وبعد مناقشات طويلة تمّ الاتفاق على الاعتراف بحق كل الألوان

في الحياة ، ولكن بإلغاء كل مظاهر الاضطهاد والميز العنصري في جنوب أفريقيا ، وبداية العمل الجاد من اجل بناء مجتمع حر .

لقد عكست إضرابات 1946 م الوضع المأساوي والاضطهاد الذي يعيشه ما يقرب من 308.000 عامل مناجم من السود ، حيث لا يتجاوز مرتب الشخص الواحد منهم ثلاث جنيهات إسترلينية في الشهر ، ورغم أن الأجهزة البوليسية قد قمعت هذه الاضرابات وقتلت 9 عمالٌ وجرحت 1248 آخرين كما ورد في كتاب " نيلسون مانديلا " لماري بنسون ، إلا أن العمال صمدوا ضد وسائل القمع والإرهاب وأطلقوا شعار : " يمكنهم اعتقالنا أو إطلاق النار علينا ولكن لا يمكن إخماد روح الثورة فينا "، مما حدا بالسيد د. إكسوما (DR.XUMA) بالقول في الأمم المتحدة : إننا حينما نطالب الخبز يطلق علينا الرصاص .

وفي ذلك يقول مانديلا في مذكراته [1]:

منذ سنة 1912 م ، والسكان الأفارقة يتناقشون في القطارات والمتاجر والحافلات والمزارع ، وفي القرى والمدن والسجون ، وفي كل مكان عن هذا الجُرم العار الذي هو الميز العنصري في جنوب أفريقيا ، وسنة بعد أخرى رفعوا أصواتهم مطالبين بحقوقهم ، غير أنهم بدل الحصول على حريتهم ازداد عليهم الضغط والظلم والاضطهاد .

---

(1) للمزيد انظر :

Nelson Mandela : The Struggle is my life, London, May, 1986 .

ومن المعلوم أن جنوب أفريقيا دولة مستقلة ، أغلبيتها سوداء تتحكم فيها أقلية بيضاء مدعومة بالقوة المادية والمعنوية الأوروبية ، وقد تأكد ذلك الفصل العنصري في سنة 1948 م حينما جاء الحزب الوطني (NP) للسلطة مدعياً أنه مختار من قبل الإله ، وإنه سينتهج سياسة عنصرية ضد السكان السود .

الميز العنصري (الآبارتهايت) هذه السياسة المجنونة كما يقول نيلسون مانديلا هي بكل المقاييس ضد أبسط الحقوق الإنسانية ، فرغم أن الدول الأوروبية تدّعي أنها مضادة للميز العنصري وتكرهه ، لكن استثماراتها وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية المتينة مع جنوب أفريقيا تعكس زيف هذا الادعاء .

إن سياسة الميز العنصري التي يقف مانديلا في وجهها مقاوماً بكل شجاعة هي التي أحدثت الاضطرابات والقلاقل حتى بين السكان الأصليين أنفسهم ، فعلى سبيل المثال حدثت معركة بين القبائل فيما بينها ، وتدخل البوليس مما أفضى إلى مقتل 147 شخصاً منهم 53 هنود و 87 أفارقة وشخصاً واحداً من البيض آنذاك .

- **عصبة الشباب :**

بعد وفاة لمبيدي سنة1947 م تولى مانديلا رئاسة عصبة الشباب في حين أصبح لحركة الـ (ANC) في تلك الفترة آلاف من الأعضاء، فضلاً عن رصيد بالمصرف قدره 3000 جنيه إسترليني ، ولذا فقد قرر المؤتمر الوطني الأفريقي (ANC) إدخال وسائل وأسلحة جديدة في برنامجه النضالي من أجل التحرير ، حيث حرض على الاضرابات والعصيان المدني والتمرد

والضغط من خلال الجماهير الشعبية لإرغام الحكومة على تغيير سياستها العنصرية والتعسفية .

وفي مايو 1950 م ، حدث صدام آخر بين المواطنين الأفارقة السود والبوليس العنصري أدى إلى مقتل 18 شخصاً وجرح 30 آخرين بينهم ثلاثة أطفال وذلك قرب منطقة تسمى أورلاندو (ORLAND) وقد علّق مانديلا على تلك الأحداث بقوله : لقد كان لهذا اليوم تأثيراً كبيراً في مجرى حياتي فيما بعد .

لقد كان مدهشاً بحق ذلك التأييد العمالي الأفريقي الكبير لدعوة العصيان المدني والتي سميت بعصيان مايو ، الأمر الذي أدى بالقيادات الشعبية إلى زيادة التلاحم بينها لإشعال جذوة النضال ضد الميز العنصري في جنوب أفريقيا ، وكمثال على ذلك التعاون والتنسيق الذي جرى بين كل من نيلسون مانديلا وصديقه سيسولو (SISULU) وبول يوسف من أصل هندي، وأحمد كاترادا وهو مسلم ، وبهذا يبدو واضحاً أن المسلمين لهم دور بارز في مقاومة الظلم الواقع على أخوتهم الأفارقة في جنوب أفريقيا .

كما أننا نلاحظ أيضاً في تلك الفترة ازدياد نفوذ وحركة الحزب الشيوعي المناهض للأبارتهايت في جنوب أفريقيا .

وفي الشهر التالي وتحديداً في 26 / 6 / 1950 م اندلعت حرب سميت بالـ (KAFFIR WARS) حروب الكافر وتعني الحروب ضد البيض ، حيث نظمت مظاهرات عنيفة شاركت فيها كل من المنظمات التالية الـ (ANC) والمجلس الهندي وعصبة الشباب ، وقد قادت الـ (ANC) أول صدام مباشر مع قوات العدو ، وكان مانديلا منسقاً عاماً لتلك المعركة ،

وفي ذلك يقول وزير العدل في نظام جنوب أفريقيا العنصري : إن المقاومة التي اندلعت قد علّمت الجماهير الشعبية كيف تسمم المياه وكيف تنتحر من أجل قضيتها .

لقد استفاد نيلسون مانديلا من صداقته لسكرتير حزب المحافظين (CP) السيد (MOSES KOTANE) موسيس كوتاني ، كما أنه استخدم أموال وخبرة الهنود المتعاطفين معه في سبيل إنجاح مهمته ، وتسخيرها لخدمة المبادئ التي يناضل من أجلها ، هذا فضلاً عن الدعم الذي تقدمه الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والأهلية لأبناء شعبه في تلك الفترة .

وفي نهاية سنة 1950 م ، اتخذ مانديلا خطوة ثانية لتصعيد حركة العصيان المدني الشامل ، وقد استجابت له الجماهير ، مما زاد العمل الثوري صلابة وقوة .

وفي سنة 1951 م دعا مانديلا رفاقه إلى اجتماع لحركة (ANC) في مدينة بلومفنتين(BLOEMFONTEIN) تحت شعار (لترجع أفريقيا) وذلك بمناسبة الذكرى السنوية لاحتلال البيض لجنوب أفريقيا (أزانيا) بهدف إشباع رغبتهم في التعبير عن السخط والاحتجاج ضد القوانين العنصرية ، وأدى ذلك الاجتماع إلى تهديد بالعصيان ، ثم إلى هيجان شعبي واصطدامات أفضت إلى مقتل (41) شخصاً وجرح المئات ، وإثر ذلك قام نيلسون مانديلا برفقة زميله أوليفر تامبو بزيارة لمناطق الكاب ، وناتال ، والتنقل من بيت إلى بيت لشرح سياسة المقاومة الشعبية السلمية المباشرة وأهدافها ، وقد واجها صعوبات جمّة منها عدم وجود هواتف ووسائل اتصالات ومواصلات مناسبة وأموال لتغطية مصروفاتهما ومقار لإقامتهما ، فكثيراً ما قضيا الليالي في

العراء حتى يحصلا على من يستقبلهما في بيته ، ولقد كانا أيضاً يُقابلان بكثير من الحذر والشك والريبة .

ويورد مانديلا في إحدى كتاباته أنه ورفاقه في تلك الفترة كثيراً ما كتبوا عرائض إلى رئيس الوزراء آنذاك واسمه (مالان) (MALAN) توضّح مطالب الأفارقة القانونية والشرعية ، ولكنهم لم يحصلوا على إجابات على رسائلهم ، وبدلاً من ذلك ردّ سكرتيره بوجوب عدمّ مخاطبة رئيس الوزراء في أمور محلية ، وتساءل عمن خولهم للتحدث باسم المؤتمر الوطني الإفريقي .

لقد زاد الغليان الشعبي ، وتمكن آلاف الأفارقة العزل من عقد اجتماعات حاشدة ، عقدت العزم بل وأقسمت على إلغاء القوانين العنصرية الظالمة بخُلق حضارية وأساليب رفيعة ، وعدم الرد على استفزازات البيض وضرورة التحلي بالصبر وبإتباع أسلوب المقاومة الإيجابية والسلمية ، وقد تحدّث مانديلا في جمع من تلك الجموع التي كانت تضمّ الهنود والأفارقة ، وقال : نحن سكان هذه البلاد من غير الأوروبيين نعلن بأن اتحادنا أصبح حقيقة .

- اعتقال مانديلا وسجنه :

وفي مواجهة تلك الثورة الشعبية ، قامت الحكومة العنصرية بحظر قائمة تشمل (500) شخص من ممارسة أي نشاط باعتبارهم أعضاء في الحزب الشيوعي ، وكان من بينهم دادو (DADOO) وكوتاني (KOTANE) و ماركس (MARKS) ، وفي هذه الأثناء مرت ذكرى تأسيس حركة الـ (ANC) في 26 / 6 / 1950 م بإضرابات عامة

ومظاهرات في مدينة بورت إليزابيث وفي غيرها ، وقد قبض على قيادات الحركة وبعض أعضائها وأودعوا السجن لمدة تتراوح ما بين 15 إلى 30 يوماً ، وبينما كان مانديلا يحاول أن يتجنب الوقوع في أيدي البوليس في تلك الليلة ، إلا أن خطاباً ملتهباً في جمع من الناس في جوهانسبرغ أوصله إلى السجن ، وقد تحدث عن ذلك بقوله : لقد عوملت وصديقي صموويل ماكاي (SAMUEL MAKAE) معاملة سيئة داخل السجن ، وضربنا ضرباً مبرحاً ، وقد احتججت على ذلك وطلبت الدواء لصديقي الذي قضى ليلته يتوجع من الألم ، ولم ينقل إلى المستشفى إلاّ في اليوم التالي .

بعد أن خرج مانديلا من السجن التقى ببعض المثقفين من المدرسين والمحامين والدكاترة ، وبدأوا في تنظيم أنفسهم وإعادة تقوية حركة (ANC) والمطالبة بحقوقهم وأرضهم الأفريقية ، وكان من بينهم صديقه والتر سيسولو الذي قضى أسبوعاً في السجن بدلاً من دفع الغرامة ، ونظراً لتلك النشاطات فقد تم القبض على مانديلا مرة أخرى في 30 / 7 وأودع السجن مع عشرات آخرين بتهمة الانتماء للشيوعية ، وفي أكتوبر من نفس العام بدأ العنف بمقتل عدد من الأفراد من قبل البوليس العنصري بحجة السرقة ، وقد أدانت حركة الـ (ANC) الحادث ، وفي مدن كمبرلي وإيست لندن جرح أكثر من 25 أفريقياً ، في حين ارتفعت الدعوة للدفاع عن النفس وازدادت عمليات الاعتقال إلى أن وصل عدد المعتقلين إلى (2354) معتقلاً ، مما حدا بالأمم المتحدة أن ترسل بعثة لتقصي الحقائق .

ورغم عدم انضباطية التنظيم ، وانعدام الدعم المادي وافتقاره لوسائل الإعلام كالصحف والمطبوعات والنشرات ، إلا أن أنصار الـ (ANC) كانوا في ازدياد مستمر . وفي الشهر التالي (نوفمبر) قُدّم مانديلا وموروكا

وسيسولو للمحاكمة ، وحكموا بتسعة أشهر مع وقف التنفيذ لمدة سنتين ، بعد أن أكدوا أنهم أشاروا على أتباعهم ومؤيديهم بضرورة استخدام وسائل سلمية وديمقراطية أثناء الاضطرابات والاحتجاجات ، هذا وقد حظى الـ (ANC) في هذه الأثناء ببعض التعاطف من رجال الكنائس البيض الذي أيدوا كفاح السود من أجل المساواة .

وفي إطار دوره التحريضي والكفاحي التقى مانديلا ورفيقه البرت لوتولي ALBERT LEUTULI في منطقة أورنج فري ستيت بجمع كبير لقبائل السود . لقد التقى مانديلا بنحو (35) الف شخص كانوا قد رحبوا به ترحيباً كبيراً ، غير أن البوليس العنصري كالعادة ضيقوا عليه ومنعوه من لقاء جماهيره ، بل وهددوه باتهامه بالانتماء للشيوعية ، وهذه التهمة في حد ذاتها حكمها عشر سنوات سجن بدون محاكمة .

وفي مواجهة الضغط وأحكام السجن والغرامات والاضطهاد ، قرر مانديلا ورفاقه مواجهة الأمر بخطة جديدة أكثر فاعلية وتأثيراً .

- **مانديلا الزوج والأب :**

يذكر مانديلا أنه وفي جميع مراحل حياته كان يشعر بالراحة التامة مع النساء بشكل عام ، وخاصةً اللاتي كنّ قويات وقادرات على إقامة علاقات صداقة مجزية .

لقد تزوج مانديلا ثلاث نساء بالتتابع ، فالأولى كانت من اختيار الوصيّ عليه وهي السيدة إيفيلين ، اما زوجته الثانية فهي اليسدة وبني

للشهيرة، ثم الثالثة وهي السيدة جاركا ماشيل أرملة الرئيس الموزمبيقي الراحل سامورا ماشيل ، والتي اقترن بها بعد خروجه من السجن[1].

لقد رزق مانديلا من زوجته الأولى (EVELYN) إيفلين بثلاثة أطفال ، ولدان هما : ماكاتو (MAKGATHO) وثمبي (THEMBE) وابنة اسمها ماكازيوي (MAKAZIWE) ، غير أن قيادته لحركة النضال جعلته لا ينعم بالحياة الأسرية والاهتمام بتربية أطفاله وشؤون أسرته ، وفي تعبير عن حقده للنظام العنصري فقد قرر وصديقه أوليفر تامبو فتح مكتب للمحاماة بعد أن استأجرا مقراً من شخص هندي ، وكلاهما يبغض الظلم والاضطهاد ، وإن كان مانديلا أكثر إظهاراً لسخطه على ذلك في جنوب أفريقيا ، وهكذا انشغل مانديلا بهموم قومه على حساب راحته وسعادة أسرته والتي قضى شهوراً وسنوات بعيداً عنها ، أما زوجته الثانية وبني فسيأتي الحديث عنها في مكان آخر من هذا الكتاب .

▪ المقاومة الشعبية طريق الحرية :

كان اللون الأسود يعتبر جريمة في جنوب أفريقيا ، ولذا يُفرض على أصحابه السكن في أحياء منعزلة عن الألوان الأخرى ، وإن عدم حمل بطاقة المرور والتي تسمى (PASS LAW) والخاصة بالسود فقط هي جريمة أخرى يعاقب صاحبها بأقسى العقوبات ، إن كل زيارة للسجن توضّح لمانديلا مدى الظلم والمعاناة التي يتعرض لها أخوانه وبني جلدته ، وفضلاً عن اتهام الكثيرين منهم بقضايا سياسية ، فإن آخرين يحاكمون بموجب القوانين المدنية،

---

(1) شبكة المعلومات الدولية ، النضال وجه آخر ، مرجع سابق ، ص 2 .

وكان مانديلا يطلع مباشرة على أنواع المعاملة السيئة والاحتقار من قبل العنصريين البيض داخل السجون لهؤلاء الأفارقة المعدمين .

لقد برز نجم مانديلا كمحامٍ عن الأفارقة الأصليين في المحاكم العنصرية ضد ما يلفق لهم من تهم كالسرقة والتخريب وغيرها ، من خلال دراسته لعلم القانون ، ونشاطاته في حركة المؤتمر الوطني الإفريقي ، فضلاً عن موهبته القيادية المتميزة ، كما برع في فن الخطابة والتحريض على الثورة، فقد خطب في حشد كبير من الناس في عام 1953 م منعاً لترحيل 58 ألفاً من السود من أحيائهم في مدينة صوفيا تاون عسفاً وذلك لاستغلال أرضهم من قبل البيض والبناء عليها والإقامة فيها بدلاً من السود ، وقد تدخلت الشرطة وحالت دون قيام صدام بين الطرفين ، وفضت ذلك الاجتماع السلمي الحاشد . ومما يجدر ذكره أن تلك الأحداث تعتبر بداية لإرغام السود على إخلاء أحيائهم المجاورة للبيض وتهجيرهم إلى مناطق بعيدة ، الأمر الذي يضاعف من حدة مشاكلهم المادية والمعنوية في بلادهم .

وفي شهر 9 (سبتمبر) 1953 م ، لم يحرم مانديلا من حضور مثل تلك الاجتماعات الجماهيرية لمدة سنتين فقط بل تم إرغامه على الانسحاب من حركة الـ (ANC) لتحجيم دوره وشلّ حركته الثورية ، غير أن هذا البطل الإفريقي العنيد لم يعدم الوسيلة للاتصال بجماهيره التي ترزح تحت الظلم والاضطهاد ، واستعمل بدائل مختلفة لتنفيذ خططه الرافضة للميز العنصري ، والتي عادة ما يرمز لها بحرف (M) والتي تعني خطة مانديلا ، وهكذا استمر في التحريض والتعبئة من بيت لبيت ، ومن شارع لآخر ، رافعاً شعاراً نضالياً للزعيم الهندي (نهرو) (يمكنك أن ترى أن طريق الحرية ليس سهلاً) . وفي إطار نشاطاته الثورية في تلك الفترة ساهم مانديلا بكتابة عدة

مقالات في صحيفة يسارية تسمى التحريـــر (LIBERATION) واصـــفاً أوضاع مواطنيه الاقتصادية والسياسية كما يلي :

" إن حياة الناس الآن تزداد سوءاً باضطراد ، حتى أصبحت لا تطاق، فقد انخفضت إمكانياتهم الشرائية ، في حين ازدادت تكلفة مستويات المعيـــشة بالنسبة للسود ، فالخبز قد شح عما كان عليه منذ شهرين ، كمـــا أن الحليـــب واللحم والخضروات والفواكه فوق قدرة العائلات الفقيرة ، إن السكان الأفارقة لا يستطيعون توفير السكن والملبس والغذاء اللازم والعلاج ، لقد حرموا مـــن حقهم في الضمان الاجتماعي ، وهم يعانون من مستوى متدني بسبب غـــول البطالة والمرض والعجز والشيخوخة ، لقد انتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة بين هؤلاء المواطنين " .

كما كتب في نفس الصحيفة بعد عامين أي في ســـنة 1955 م مقـــالاً تحدث فيه عن مأساة العمال الذي يتعرضون للتهجير والنقل إلى أماكن عمـــل بعيدة عن مساكنهم ومقارهم الأصلية ، الأمر الذي ساهم فـــي هـــدم البنيـــان التقليدي المتماسك للأسر الأفريقية ، كما تحدّث عن سياسة تفريق الأطفال عن أمهاتهم والمعاملة القاسية ضد السجناء وعمال المناجم ، وضرب أمثلة كثيـــرة على فظاعة نظام الميز العنصري وسياساته الطبقية ، كما أشار في مقالته على أن ثلث عمال المناجم يجلبون من موطنهم الأصلي في مقاطعة الترنـــاسكاي ، كما تحدّث عن القوانين الظالمة ، ومن أبرزها إقامة نظام كيانات خاصة تسمى البانتوستانات (BANTUSTANTS) وهدفها تجميع السكان المحليين فـــي مناطق تتمتع بحكم ذاتي لغرض عزلهم عن البيض العنصريين ، فضلاً عـــن إفقارهم وتهجيرهم عن أراضيهم ، ومنعهم من الحصول على فرص التعلـــيم والصحة والخدمات وغيرها.

- **رؤية مانديلا في نظام التعليم العنصري :**

لا شك أن نظام الفصل العنصري جعل من ثلاثة ملايين عنصري أبيض يتحكمون في مصير أكثر من سبعة وعشرين مليون أفريقي أسود وملوّن من أصول آسيوية في جنوب أفريقيا.

كما جعل الملكية العامة للبيض تصل إلى 87 % ، بينما بقية الألوان نصيبها 13 % فقط من أراضي جنوب أفريقيا .

- **نظام تعليم البانتو :**

كان التعليم مقتصراً في الأساس على أبناء البيض فقط ، ولكن بعض المبشرين والدعاة يقومون بتعليم بعض أبناء الأفارقة السود من شعب أزانيا وهو الاسم الأصلي لجنوب أفريقيا ، يعلمونهم تاريخ البيض المستعمرين ودينهم وعاداتهم وتقاليدهم وحضارتهم (إن كان ما لديهم يسمى حضارة) ، فضلاً عن تأهيلهم كخدم لمنازل ومزارع ومصانع البيض .

لقد تبنى نيلسون مانديلا مع أقرانه منذ بداية مكافحة التمييز العنصري هدفاً اعتبره الهدف الحاسم في صناعة مستقبل آخر في بلاده ، وهو الوصول بالتعليم إلى كل طفل أسود ، ومكافحة أمية الكبار ، وقد أدرك أن التميز العنصري لن يزول إلا إذا توفرت القوة اللازمة من وراء الأهداف المشروعة لتحرير السود من الاضطهاد وإن لم يتم استخدامها .

وفي مواجهة ذلك المسخ الثقافي ، قامت حركة المؤتمر الوطني الأفريقي بمطالبة أولياء أمور الطلبة الأفارقة بسحب أبنائهم من هذا التعليم العنصري، غير أن المشكل الكبير كان في إيجاد البديل .

وعليه فقد اقترح مانديلا إنشاء مدارس الحي أو الجماعة (THE COMMUNITY SCHOOLS) الخاصة بهم ، غير أن رفض السلطات لها ومهاجمتها من قبل البوليس ، فضلاً عن نقص الموارد المالية والإدارية لتسيرها أجهض الفكرة ولم يكتب لها البقاء .وفي ذلك يقول مانديلا : لقد وجدت نفسي محاصراً ومعزولاً عن أهلي وحيي وجماعتي ، وذلك باسم القانون ، فأينما أذهب أجد نفسي مراقباً ومحاطاً بقوات القمع البوليسية ، إنني باختصار أعامل كمجرم ، ليس بسبب ما قمت به ، ولكن بسبب ما أومن به وأناضل من أجله ، إن كل ذلك كان من أجل صحوتي ووعي وضميري .

وبهدوئه وثباته رأى مانديلا أن الجماهير الشعبية بدأت تعي دورها وتؤكد على تكاتفها وتعاضدها من اجل تحقيق الديمقراطية والعدالة ، بغض النظر عن اللون والدين أو المعتقد السياسي ؛ وفي هذا الخصوص تضافرت مع حركة الـ (ANC) عدة منظمات وهيئات سياسية ونقابية مضادة للميز العنصري كان بعضها من عناصر بيضاء ، وفي هذا يقول مانديلا : إنهم بدأوا يعدّون أنفسهم للتحدث معنا والأكل معنا ومعاملتنا كبشر .

- إعلان الحرية :

وهكذا نرى أن المناضل نيلسون مانديلا لم يترك فرصة في الداخل والخارج إلا واستغلها للجهر بآرائه والتعبير عن قناعاته ومبادئه لمقاومة العنصرية في بلاده ، والنهوض بشعبه في مختلف المجالات وخاصة في تعليمه ومحو أميته .

أما على صعيد الكفاح في جبهة النضال الخارجية والاتصال بدول العالم ومنظماته فقد تقرر سفر السيد سيسولو إلى الاتحاد السوفييتي والصين وبريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية وذلك لعرض قضية شعبه وشرحها والتأكيد على مطالبه التي تتمثل فيما يلي:

1 ــ إلغاء قانون العبور .

2 ــ إلغاء تعليم البانتو العنصري .

3 ــ توفير فرص العمل والسكن والأمن والضمان الاجتماعي للسكان المحليين .

4 ــ الاعتراف بحق السود في ممارسة حياتهم السياسية والديمقراطية أسوة بالبيض .

5 ــ تملّك أدوات الثروة كالمصارف والمصانع والشركات الاحتكارية من قبل جميع الناس دون تخصيص أو استثناء .

وبهذه المطالب التهبت مشاعر الجماهير وتعززت شعارات النضال والتحرير في داخل جنوب أفريقيا.

ففي 25 / 6 / 1955 م عقد اجتماع جماهيري ضم آلاف من مختلف الأجناس قرب مدينة جوهانسبرغ وتم فيه إعلان وثيقة الحرية التي تقول :

" نحن سكان جنوب أفريقيا نعلن لبلدنا وللعالم أن جنوب أفريقيا هي ملك للذين يعيشون فيها من سود وبيض وليس لأي حكومة الحق في السلطة قانوناً ما لم تكن مبنية على رغبة الشعب كله " ، غير أن هذا الاجتماع تعرض لمهاجمة البوليس السري العنصري والتفتيش والقبض على منظمي الاجتماع الذي استمر في البداية لبعض الوقت ، ثم انفضّ فيما بعد تحت الضغط والتهديد والمطاردة .

ولم تكد تمر ثلاثة أشهر على تلك المواجهة حتى قامت الشرطة المكونة من (1000) ألف جندي مدججة بالأسلحة بمهاجمة وتفتيش البيوت للبحث عن إثباتات ومستندات تدين أصحابها بالانتماء للشيوعية وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي المحظور .

واعتباراً من سنة 1956 م صدرت تعليمات مشددة بضرورة حمل النساء الأفريقيات في جنوب أفريقيا لجوازات سفر المرور والتنقل أيضاً أسوة بالرجال ، مما حدا بجماهير النساء إلى الاحتجاج في مظاهرات عديدة ساخطة أمام مكتب رئيس الوزراء الجديد جي سترجدوما (MR. J. G. STRIJDUM) ، وكان بعضهن يلبسن ملابس مزينة بعلامات وإشارات حركة الـ (ANC) ، وقد قادت تلك المظاهرات والاحتجاجات السيدة ليليان أنغوي (LILIAN NGOYI) إحدى العناصر النسائية النشطة في حركة النضال ضد الميز العنصري في جنوب أفريقيا .